الفصل الثلاثون

الحنين

انتقلت مها الى منزل العمة راضية بعد أن وجدت من يستأجر منزلها مفروشا بما يكفل لها دفع الأجرة لصاحب الملك وتأمين حاجاتها الضرورية مع الصغيرين.. تنازلت مرغمة عن استقلالها لترتاح من عبء النفقات الملحة التي تتضاعف حين تكون بمفردها.. وكانت بطبعها الدمث تستطيع أن تتكيف في أي جو بسهولة بالرغم مما تشعر به من حزازة الحياة على هامش الآخرين.. فتعزي نفسها أنها في وضع هو أفضل من وضع أحمد الذي منعت من زيارته ولا تدري على أي حال يقيم..

خيل لمها أن من الأنسب لها أن تكون بين أهل أحمد لتوفر له الأمن النفسي في محنته، فيكون أقوى على مجابهة خصومه، فان أي سوء تفاهم يمكن له أن يصبح حدا فاصلا في حياتيهما، فتحرم منه ويحرم منها الى الأبد.. ووجدت أن من الحكمة أن لا تسعى الى عمل ما دام قد توفرلها ذلك المبلغ الذي لا تشعر معه بحاجتها الملحة الى المال.. وهي كذلك تكون قريبة من حياة التي تذهب واياها لزيارة نساء السجناء واقناعهن بالقيام في مظاهرة يطالبن فيها بالقيام بمحاكمة السجناء السياسيين، أو الإفراج عنهم.. وهي بذلك تأمن على صغيريها أن يكونا بأيد أمينة في غيابها.. فلقد أولعت العمة راضية بهمام، وأولعت عائدة بعزيز فلا يكاد يفارقها، فهي تقوم بتدريسه والإشراف على واجباته المدرسية.. فاذا ما جن الليل أرضعت الصغير لينام، وقصت قصة على عزيز، ثم تكتب بعض الوقت، وتغفل بعض الوقت لتستيقظ فجأة بعد موهن من الليل لتفكر في أحمد..

لم يكن في قربه منها أكثر لصوقا بها من بعده عنها.. كانت تبسط حياتهما معا بشكل صريح واضح، تخاصمه وتعاتبه، وتصالحه أو يصالحها، ويمتلئ قلبها أسى وغضبا على كل من يمس شعرة من رأسه من قريب أو بعيد.. وتحادثه كأنما هو دان من قلبها يسمعها، تسأله فيما يمكن لها أن تفعله لتملأ قلبه بالإطمئنان، لتزيل من أعماقه رواسب الأجيال العصية، لتزرع فيه ايمانا جديدا بإمكانيات المرأة التي لا تحد! كانت تحاوره بصراحة تمس كل الأمور التي يحب الفضلاء أن يبقوها في طي الكتمان.. فهي مخلصة للحياة ولنفسها ولا تحب الزيف في العواطف أبدا..

أبعدت تلك المحنة كلّ أسباب الخلاف بينهما فغدت تافهة.. ورمى الجزع عليه كـل خصوماتهما الى المكان الخلفي.. وبدت مجرد تعبير غريب عن تأجج عـاطفي ضـلّت تقديره، عن خوف من تقلّب الزمن، عن ثورة أعصاب تتخذ مادتها صورة واقعيـة مـن مشاكل صغيرة ملموسة: الأطفال والعلاقات الإجتماعية والعمل والأدب الذي تمارسـه.. وبدا لها أنها جميعها أقنعة تخفي حقيقة واحدة هي جهلها بمكانتها في قلبه، وجهله بمكانته في قلبها.. كلاهما يجهل مدى الآخر، ويجهل ما يريد منه الآخر.. ويبني بالتـالي نتـائج وهمية على نظريات خاطئة..

وأخذت تكتب لتتخلّص من ذلك العبء النفسي الذي يثقل كاهلها فيزول الضغط عنها فتشعر بأن نفسها تصفو وتنزلق أعباء الحياة عن كاهلها، وتخف تلك الحزازات الصغيرة التي تفسد العيش، وتجعل نهرالوجود يضيع في المجاري الضيقة.. انها تشعر حين تكتب بوجودها، وبرضى القيام بالواجب، وتحقيق الذات.. ويعود اليها توازنها النفـسي الـذي لولاه لأشرفت على الإنهيار!..

كانت تقاوم القلق عليه مقاومة المستميت حين كان مختبئا فـي المنـزل.. وحـين أصبحت تحاول جاهدة أن تضم قوتها الى قوى أخرى تترك أثرا في البنيـة الإجتماعيـة مهما كانت ضئيلة.. ما هو دورها كامرأة ؟ وما دور النساء جميعا في مجتمعها في هـذا العصر؟ هل هو مجرد إنجاب للأطفال أم مشاركة الرجل في اتخاذ القـرار الإجتمـاعي والسياسي؟ وذكرت حوارا جرى بينه وبينها منذ زمن ليس بالبعيد.. لماذا يقصيها الرجل عن أن تكون حرة مستقلة، وتكون ندا مهما بلغت كفاءتها لتكون عونا له؟

أطل الربيع وأزهرت أشجار اللوز في الغوطة، واشتاقت مها لتلك البقعة الفردوسية قرب منزلها حيث كانت تتنزه وأحمد في الجمعات، حاملة الغذاء ليتناولوه قـرب النهيـر تحت شجرة لوز مزهرة..

كانت تحس بذلك الشوق الوجيع في حنايا صدرها وتريد أن تفكر بأحمد في سـكون الطبيعة الأليفة، فهيأت بعض الزاد، وطلبت من عزيز أن يهيئ نفسه للذهاب معها، ولكنه كان يرغب في البقاء في البيت ويفضل اللعب مع عائدة التي بكرت فـي يقظتهـا هـذا الصباح..

كانت عائدة تضحك حين دخلت مها الغرفة، ولما سألتها عن سر ضحكها نظرت في وجه عزيز وقالت:

-هل أخبر امرأة خالي بما قلت؟

فقال عزيز وضحكته الرحبة التي تشبه ضحكة والده تشع في وجهه:

-هذا سر بيني وبينك.. لا يجب أن تفشي الأسرار..

-قال لي...

ووضع عزيز يده على فمها:

-أزعل منك!

وكانت عائدة تفرج أصابع عزيز عن فمها وتضحك..

-قال لي "أنا أحبك يا عائدة"..

-ماذا في هذا ؟ ألست ابنة عمتي؟

-ليس هذا فقط.. قال لي "عندما أكبر سأتزوجك" فقلت له "أنا أكبر منك" فقال "لا يهم في المستقبل أصبح أكبر منك"..

لم يلبث أن انفجر عزيز بالبكاء وقد ذكر أنه بغاطته قد سبب الأذى لوالده:

-أنت ياعائدة لا تحفظي الأسرار.. أنا أخاصمك!

ابتسمت مها وقالت "أتذهبين معنا يا عائدة الى الغوطة" ؟

-أذهب..

-إستأذني والدتك..

وانفلتت عائدة تقفز درجات السلم الى الطابق الأرضي حيث كانت والـدتها تهيـئ الفطور، وعادت بعد قليل بالموافقة، وأمسكت بيد عزيز، وسارت في المقدمة بينما كانت مها تجر عربة الصغير بيد وتحمل حقيبة القش في اليد الأخرى.. وهتفت عائدة:

-أعطني الحقيبة يا امرأة خالي..

وحملت وعزيز الحقيبة وأخذا يؤرجحانها في الطريق، ويتحدثان بما لا تسمعه مهـا ويتضاحكان..

مرت مها بالشارع حيث يسكن منزلها الغرباء، وأحـست بـالحنين اليـه يفجـر صدرها.. كان العمال يقطعون الشجر المثمر في الطرف المقابل للشارع ليحولوا الأرض

الزراعية في الغوطة الى أرض للبناء، وقالت مها لنفسها "لن تمر خمسون، بل عـشرون عاما حتى تصبح الغوطة أثرا بعد عين تذكرها كتب الأدب والأشعار فيقول الإنسان فـي مقبل الزمن "كانت هناك حول دمشق غوطة رائعة تسيرالسيارة حولها نصف ساعة دون أن تختفي أشجارها المثمرة عن العين، غوطة غنّاء تعب الإنسان الدمشقي فيهـا ألـوف السنين، انتزعها من الصحراء، ونقّاها من الحجارة، ورواها وجعلها أرضا سبخة، فجاءها تاجر قصير النظر، لا يفكر الاّ في ربحه، ومالك اشترى القصبة بعشر ليرات ليجـد أن القصبة اليوم تساوي خمسة آلاف.. فتضافر التاجر والمالك ليعدما الشجر المثمر ويحولا الأرض السبخة الى كتل الشمنتو للبناء..

دمشق تتكاثر، ومن العدم نمت طبقة ملاكين جدد!

عائلات تسمى بنوع النبات الذي كانت تزرعه في بساتينها، جمعت ثرواتهـا مـن إعدام الغوطة!

دخلوا بستانا فحياها الناطور الذي كان يعرفها حين كانت ترود المكان هي وأحمـد، وجلست تحت شجرة مزهرة قرب الساقية.. وأخذت عائـدة وعزيـز يقطفـان أزهـار المرغريت ليصنعا منها عقودا وأكاليل، ولما امتدت يد عزيز الى الشجرة ليقطف زهرها أنبته ومنعته.. وذكرت أحمد كم كان يحرص على الزهر حين يتنزه في الغوطـة، وكـم كان يؤنبها لو امتدت يدها لتقطف زهرة!

-كفى تقرصين الشجر!

وحين كفت عن تلك العادة كان يمزح معها ويقول:

-لماذا لا تمدين يدك وتقطفين عرقا مزهرا؟

-خوفا منك!

-هذبتك.. ألا تعترفين بأنني هذّبتك؟ كانت يدك قاسية على الكتاب وعلى الـشجر، ليس من كتاب يقع بين يديك الاّ وتتركينه أحدب الظهر، وليس من شجرة تمرين بهـا الاّ وتقاسي من قرصاتك..

-كم تبالغ! ما علي لو قطفت من شجرة زهرة أشمها؟ هي غنية لن تحـس بزهـرة واحدة أسلبها إياها..

-أفقريها اذن..

-انها كالجدول المتدفق لا تحس بنغبة عصفور..

-مليون انسان يمرون يوميا من هنا.. ان قطف كل واحد زهرة لن تبق هناك شجرة تبرعم وتثمر، وان قطف فرعا لن يبق هناك غوطة!

-أحب أن أشم الزهر والطبيعة سخية!

-يالهذا الحب! أجميل أن ينتف لك أحد شعر رأسك؟

-لا، طبعا..

-ليس هذا فقط.. انك تشمينها لحظة ثم تدعكينها بين يديك وترمينها ثم تقطفين أخرى من شجرة ثانية..

-كنت أفعل هذا بحركة لا شعورية بحركة لا شعورية، كما تحرك أنت حبات المسبحة لأشغل يدي..

-لو تعرفين أي انطباع يتركه تصرفك اللاشعوري في نفسي لما فعلته أبدا.. أحس أحيانا أنك ملولة متبرمة.. ان هذه التصرفات الصغيرة هي التي تكشف أغوار الإنسان.

-أحمد انك تخيفني بسوء ظنك!

-ان الرجل لا يشعرأبدا أنه يملكك تماما!

-وأنا أشعر بأنك تملكني بأحكم مما أطيق.. فقدت انتمائي الى العالم حولي بسببك، لأنني أنهل من الحياة بشكل يجعلني في غيبوبة دائمة.. أتريد امتلاكا أقوى من هذا؟ أحيانا أشعر أنك خطر علي وأتمنى لو تبتعد عني.. أتصدق؟ لأجد نفسي..

كانت مها تذكر ذلك الحديث في تلك البقعة ذاتها وقد أزهرت أشجار الليمون التي يعبق أريجها في الجو وهما يسيران يدا بيد.. لقد ابتعد عنها فهل وجدت نفسها؟ انها تشعر بالضياع، بذلك الحنين الطاغي الذي يسلب الإنسان أمنه، ويفقده رشده.. لاتنام الاّ والدموع تغرق وسادتها.. تشتهي أن تشم رائحته، وتشتهي أن تلتحم شفتاها بشفتيه حتي تغدو ورمة من القبل.. ماكانت تريد أن يمتحنها الله ببعاد مماثل، وهي تتخيل كيف يكون وضعه في السجن الكئيب، وما هو الإمتحان الرهيب الذي يتعرض له أحمد..

وتلاحق دمعها وجرى متمهلا على وجنتيها، ورأت عزيز وعائدة يتركان الأكاليل على الأرض ويتراكضان بين الشجر، ثم أسدل الدمع غشاوة على عينيها فأغمضتهما..

كانت الشمس تتخلّل الشجر وتلقي بشعاع على وجهها، فيتوهج في عينيها المغمضتين الدمعتين نور أحمر ينكسر في مرئيات مذهبة تتراقص بألوان شتى، وخلال ضجيج اللون كانت ترى أحمد منفرج الشفتين عن أسنانه البراقة، يبتسم بتلك الحلاوة الآسرة كما يفعل حين يصفو مزاجه بعد خصام..

واقترب عزيز منها وغمر رأسه في صدرها فمسحت على رأسه، ورفع وجهه وقد تلبدت في عينيه نظرة حزن.. وأحست مها أن عدوى حزنها تنتقل الى طفولته، وتعكر روحه فلامت نفسها وقالت لعائدة:

-خذي عزيز والعبا معا، انني أرتاح أن أكون وحدي..

ابتعد الصغيران ولكن لم يعد لهما مرحهما السابق بل وقفا يستعيدان أحداث الأيام المشؤومة التي حيل فيها بينهما وبين أبويهما..

بكى الصغير الذي لا يعرفه أبوه بعد، فحملته من عربته وألقمته ثديها.. لديها ما يعزيها أما هو فماذا لديه ليعزيه؟ وقفزت فجأة الى ذهنها حادثة معينة بمجاورتها بيتها القديم وشجرة اللوز المزهرة..

جاءها يوما صديق لزوجها، وهو موظف في الإطفائية بقطة ليلعب معها عزيز.. تعذب كثيرا حتى التقطها من بين عشيرتها، واستنفر الجنود للّحاق بها.. وعندما أطلقها من الكيس ووجدت نفسها في بيت غريب نظرت الى من حولها بوحشية ثم توارت خلف الباب.. كانت تعيش في الإطفائية مع مجموعة من القطط وتأكل ما يفضل من وجبات الجنود، وترتع وتلعب في الحديقة الكبيرة مع اخوتها الكثر.. فاذا بها تنقل الى حياة جديدة بدون رفيق، بين جدران منزل غريب.. وجاءتها مها من اللحام القريب بما يناسبها فرفضت ما قدمته لها من طعام، وعندما أخذت تلمس فروتها برفق تحول هريرها الغاضب الى مواء كأنه نحيب، ثم لزمت الصمت فلا حركة ولا نأمة، بل نظرات يائسة.. وبقيت لا تمس أي طعام آخر، ولا يغريها به شيء.. وصامت المسكينة يوما ثم انفجرت مرارتها. وفي صبيحة اليوم الثالث شاهدتها مها في الصندوق الذي أعدته لنومها جثة هامدة.. أيقظت أحمد وقالت والغصة تحشرج في حلقها "القطة ماتت" فقال "لا حول ولا قوة الاّ بالله! حتى الحيوان يقتله الحنين الى جوه الذي اعتاد عليه!"

قام وارتدى روب دي شامبر فوق منامته، وحمل الصندوق وذهب الـى البـستان، ودفن القطة تحت شجرة اللوز قبل أن يستيقظ عزيز..

ومها تشعر في هذه الأيام بأن مرارتها ستنفطر للعزلة التي تعيشها.. ثورتها تتحول الى داخلها لأنها لا تجد لها مخرجا، فرديا أم جماعيا، فحتى تلك اللحظة لم تتفـق كلمـة النساء على القيام بتلك المظاهرة من أجل رجالهن الموقوفين..

وانتصبت مها واقفة بعد أن وضعت الصغير في عربته.. وأخذت تـذرع البـستان جيئة وذهابا "متى تتخلص المرأة من عجزها، متى؟"

وتناولت قضيبا أخذت تضرب به سيقان الشجر لتخفف عن نفسها كآبتها.. ونبههـا الصغير ببكائه بأنه لم يشبع.. ان حليبها لا يغذيه وهي ترضعه حليبا تكدر بالقلق والخوف والغضب.. ليته لم يأت في هذه الأيام العصيبة الى الدنيا! وعادت لحمله مـرة أخـرى تهدهده، ولكن صياحه لم يتوقف! هكذا قضي على المرأة أن تغرق في الشؤون الصغيرة تلي بعضها بعضا.. لعله بحاجة الى تغيير حفاضه! وفردت مشمعا على الأرض وقامـت بالتغيير له.. فهدأ وأعادته الى عربته.. آه هكذا يضيع وجود المـرأة وامكانياتهـا فـي المجاري الضيقة! وغسلت يديها بماء الجدول والصابون، ونادت عائدة وعزيز اللـذان كانا يغسلان يديهما بماء الجدول ويتراشقان بالماء:

-لا تبللا ثيابكما، علينا الرجوع باكرا، فتعالا لنأكل ما أحـضرته مـن سـندويش طيب.. وأخرجت ترمس الشاي والبيض المسلوق، وسندويش المارتديللا والجبن والزيت والزعتر، وسكبت الشاي المحلى في أكواب الميلامين، وأخذت تراقب عائدة وعزيز وهما يأكلان بنهم وقد توردت منهما الوجنات..

ماذا يأكل أحمد؟ لو أنها فقط على صلة به، تشد أزره، ويشد أزرها.. لو أنها تراه، لو أنها تتبادل وإياه تحية من بعيد فتطمئن عليه، لو أنها تذهب اليه تحمل له الحاجات التي يحبها وتصبح ذات أهمية في تسويغ عيش من يلقى الحرمان لهان الأمر.. ولكنها لاتدري في أية شروط لاإنسانية يعيش، والاّ لم يحرمون على الأهل الإتـصال بهـم ويعـاملون الأعداء السياسيين بأسوأ مما يعامل به القتلة والمجرمون؟..

* * *